كتاب الماني عن ايديولوجية «حزب الله»... وتجربته السياسية والاجتماعية في لبنان

عبد الرؤوف سنو *

■ أدى قيام الجمهورية الإسلامي في ايران عام ١٩٧٩، الى انعكاس فكرها وممارستها على الشيعة في لبنان، فانصبت اهتمامات البحث العلمي على دراسة هذه الظاهرة الجديدة للإسلام المعاصر. من المؤلفات التي صدرت حديثاً كتاب الإسرائيلي شمعون شابيرا «حزب الله بين ايران ولبنان»، وفي المانيا، صدر كتاب ستيفان روزيني بعنوان «الإسلامية الشيعية في لبنان».

قسم روزيني كتابه الى ثمانية فصول. حدد في الفصل الأول مفهومه للإسلامية على انها «ايديولوجية دينية تسعى الى التغلغل بشكل تام في كل أوجه الحياتين الاجتماعية والسياسية للمجتمع من خلال تفسير جديد للإسلام». (ص٢). ويعتقد «ان الصحوة الشيعية ظهرت أولاً في لبنان وليس في ايران، وعلى يد الإمام موسى الصدر الذي تزعّم الحركة المطالبة بتحرر الشيعة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ضمن النظام الطائفي اللبناني» – هذه الصحوة السياسية جاء التعبير عنها من خلال تأسيس «المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى» وحركة المحرومين اللبنانيين (حركة أمل). ويرى المؤلف ان الحركة الإسلامية الشيعية بلغت ذروتها في النصف الأول من السبعينات، ثم خسرت من زخمها بعد اندلاع الحرب الأهلية. لكنها استعادت فاعليتها السابقة من خلال اختفاء الإمام الصدر وانتصار الثورة الإسلامية في ايران والاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢. ويشير الى ان الحركة الإسلامية سعت بعد عام ١٩٨٢ الى أسلمة المجتمع اللبناني على النموذج الإيراني بأساليب سلمية. لكنها تخلت عن مشروعها لاحقاً بسبب رفض معظم اللبنانيين له، ومن بينهم فئات من الشيعة، الى جانب عدم نضوج الظروف الاقليمية لتنفيذ هذا المشروع.

في الفصل الثاني (الصراع في لبنان)، يرى الباحث «ان الاجتياح الإسرائيلي للبنان في آذار (مارس) عام ١٩٧٨ كان محطة فاصلة تغذت منها الحركة الشيعية (أمل)، في حين ان اجتياح عام ١٩٨٢ واحتلال قسم من جنوب لبنان كانا محطة لميلاد الحركة الإسلامية» (ص ٦١). ومنذ ظهور حزب الله عام ١٩٨٣، أصبح هناك منافس شيعي لحركة أمل. فيسلط الضوء على تنافسهما للسيطرة على القرار الشيعي، ويرى ان مركز حزب الله تعزز نتيجة مقاومته للاحتلال الإسرائيلي.

بعد ذلك يتناول بالتفصيل الجانب البنيوي للصراعات اللبنانية، ويعالجها ضمن أربعة محاور تتعلق بأشكال الهوية والاندماج. وهذه المحاور هي: الطائفية السياسية والعلاقة الزبانية والمناطقية والعائلية. شكلت الأولى صيغة ازدواجية – اندماجية لمنع اضطهاد الطوائف لبعضها، لكن سيئاتها تفوقت على حسناتها بالنسبة الى الشيعة، وخصوصاً في ما يتعلق بقاعدة التناسب الطوائفية وتوزيع المناصب التي لم تأخذ في الاعتبار النمو الديموغرافي للشيعة، وهو ما جعلهم يتهمون الموارنة بالتسلط على النظام اللبناني والتأسيس «لهيمنة مسيحية» (ص ٧١). وفي شأن العلاقات الزبانية، يرى انها اختلفت من طائفة الى أخرى. فقامت بها الأحزاب والكنيسة والمدرسة عند الموارنة، وتمركزت في يد الزعيم الفردي عند السنّة. أما بالنسبة الى الشيعة، فافتقر زعماؤهم الى وسائل فاعلة وكافية ليلعبوا دوراً وسيطاً بين طائفتهم وبين الدولة، وخصوصاً في بيروت، إذ لم يتمثلوا برلمانياً بما ينسجم مع حجمهم الديموغرافي. وخلال الحرب الأهلية، تحولت الزبانية من الزعيم الإقطاعي – البورجوازي الى القائد الحزبي – الميليشياوي. وفي شأن المناطقية، يرى انها ارتبطت بالتجانس الطائفي والمذهبي وتمحورت حول الدائرة الانتخابية من جهة، وارتبطت بالتبعية والطائفية السياسية والعلاقات الزبانية من جهة أخرى. كما يبرز روزيني الدور المهم للعائلية في الحياة البرلمانية اللبنانية وفي التضامن العائلي، ويعتبرها طبقة سياسية تنتج نفسها من خلال دوائر عائلية صغيرة.

الفصل الثالث (شيعة لبنان)، يعالج ثلاث مسائل رئيسية: ١ – رموز الأسلامية الشيعة التي كانت حافزاً نهضوياً بالنسبة الى الطائفة (أئمة أهل البيت علي والحسن والحسين والمهدي المنتظر والعلماء محمد باقر الصدر وموسى الصدر ومحمد حسين فضل الله وآية الله الخميني وكربلاء وعاشوراء والنجف وقم)؛ ٢ – العلاقات الشيعية – الشيعية ودور ايران في ذلك؛ ٣ – موقف الشيعة من نظام أمين الجميل. وفي المسألة الثانية، يحدد أوجه الخلاف بين حزب الله وايران من جهة وحركة أمل من جهة أخرى، وأبرزها دعوة الأولين الى حصر ولاية الفقيه في شخص الإمام الخميني، ورفض الحركة ان تمتد سلطة الخميني السياسية وصلاحياته على لبنان. ولا يقتصر هذا الموقف الرافض على حركة أمل، حيث يذكر ان السيد محمد حسين فضل الله انكر بدوره حصر قيادة الأمة الإسلامية بشخص الخميني فقط.

قسم استقبال في احد المراكز الصحية التابعة لحزب الله.

يرى المؤلف ان تصدير ايران ثورتها الإسلامية الى لبنان تسبب في تفسخ وانشقاق داخل الطائفة الشيعية تبلورا في السنوات ١٩٧٨ و١٩٨٢ من خلال قيام تيارات ثلاثة: سياسي علماني (حركة أمل)؛ متأثر بالثورة الإيرانية يخضع لولاية الفقيه (حزب الله)؛ وتيار أخير يرفض كلاً من العلمنة واقامة حكم اسلامي في لبنان (الإمام الراحل محمد مهدي شمس الدين والمفتي الشيخ عبدالأمير قبلان). في احدى المناسبات أعلن الإمام شمس الدين ان «فكرة نظام اسلامي في لبنان أو حكم اسلامي يقوم على الشريعة، ينسجمان مع روح الإسلام وشكله كدين وقانون». لكن شمس الدين كان يعي من ناحية أخرى «ان دولة اسلامية تصلح فقط للمجتمعات الإسلامية التي تسود فيها غالبية إسلامية، وليس في لبنان، لأن الشيعة هم لبنانيون أولاً ثم مسلمون ثانياً وشيعة ثالثاً» (ص ١١٣). من هنا، دعا الى تحالف وطني بين اللبنانيين، فيما دخل نبيه بري في لجنة الانقاذ عام ١٩٨٢ ثم في الحكومة عام ١٩٨٤ للسبب نفسه. كانت هذه التطورات كافية لحصول انشقاق في حركة أمل (حسين الموسوي) وافتراق الإسلاميين الشيعة عن الحركة الشيعية، ودخولهم في مواجهات عسكرية ضد بعضهم بعضاً منذ عام ١٩٨٨. يخلص المؤلف الى ان موقف حركة أمل المعتدل تجاه نظام أمين الجميل وتحفظها تجاه انعكاس تصعيد عسكري متطرف ضد اسرائيل على الجنوب، جعل الكثير من أعضاء الحركة يتحولون الى حزب الله، خصوصاً وان التنظيم الأخير تفوق على حركة أمل في حجم المرتب الذي كان يدفعه الى مقاتليه، وتمكن بالتالي من استقطاب نحو ٢٠ في المئة من الشيعة (ص ١٥٩ – ١٦٠).

خصص الباحث روزيني الفصل الرابع للحديث عن «الحركة الإسلامية في لبنان». فأشار الى أولى المحاولات لتأسيس «حزب الله» حدثت في العراق عام ١٩٦٩، من دون ان تؤدي مع ذلك الى نتيجة، بسبب رفض أحد المشاركين، وهو الإمام موسى الصدر، مشروع دولة اسلامية في لبنان وتفضيله اصلاح النظام السياسي اللبناني بالتعاون مع المسيحيين (ص ١٢٣). ويعتقد ان ابعاد النظام العراقي الرموز الشيعية اللبنانية الى لبنان بعد عام ١٩٧٨، أثر ايجاباً على نهوض الحركة الإسلامية اللبنانية. فاستقر عباس الموسوي وجماعته في البقاع، في حين شكل تلامذة محمد باقر الصدر، راغب حرب وحسن نصرالله وحسين كوراني وصبحي الطفيلي، نواة مدرسة فكرية. وما لبث هؤلاء الآخرون ومعهم مؤسسات ومنظمات واتحادات وتجمعات شيعية تعمل تحت شعار الإسلام، أن أسسوا مجلساً قيادياً لحزب الله. ومنذ مطلع عام ١٩٨٣، بدأ الحديث علناً عن «حزب الله» في البقاع، وتأسس مجلس «شورى القرار»، هذا إضافة الى لجان في المناطق. وفي أيار (مايو) ١٩٨٤، تأسس الحزب رسمياً، وضم مكتباً سياسياً، وأصدر مجلة أسبوعية، وفي السنوات التالية، توسع اعلامياً ودعائياً. ومنذ عام ١٩٨٩، يعقد الحزب مؤتمرات يختار خلالها أمينه العام. أما القرارات، فتتخذ من قبل ثلاث قوى: شورى القرار والأمين العام والمرشد الروحي للحزب (السيد محمد حسين فضل الله).

على ان ما يميز المرحلة بعد عام ١٩٨٢، هو وصول حرس الثورة الإسلامي الى لبنان. وعمل هؤلاء في مجالات التثقيف السياسي وتشكيل وحدات عسكرية كالمقاومة الإسلامية والجهاد الإسلامي وأمل الإسلامية، وأخيراً، انشاء مؤسسات بنية تحتية تهتم بالعمل الاجتماعي والاقتصادي والخدماتي، شكلت القاعدة الاجتماعية – السياسية لحزب الله.

ينتقل المؤلف بعد ذلك للحديث عن سيرة رجال الدين الشيعة اللبنانيين وأعضاء الحركة الإسلامية وأتباعها وجماعاتها. ما هي الجذور الاجتماعية والثقافية لأعضاء حزب الله، وكيف يؤثر هذا على القاعدة الجماهيرية؟ يجيب روزيني بأن شبكة الخدمات الاجتماعية – الاقتصادية – الخدماتية التي انتشرت في مناطق الاكتظاظ الشيعي، أرست نفوذ حزب الله بين أصحاب المداخيل المتدنية وممن لا يحملون شهادات تعليم. ويرى ان التعاطف مع الحزب يصل الى المثقفين لاعتقادهم ان العلمانية فشلت في حل المشكلات الاجتماعية – الاقتصادية والسياسية، وان المقاومة الإسلامية هي التي تقدم البديل الجهادي – الاستشهادي ضد اسرائيل. كل هذه العوامل مكّنت حزب الله من دخول المجلس النيابي عام ١٩٩٢ بثمانية مقاعد، بعدما شهد تحولات فكرية – سياسية دفعته للانتقال الى العقلانية والتخلي عن مشروعه الهادف الى انشاء دولة اسلامية، وبالتالي ارتداء ما يشبه ثوب المعارضة الإصلاحية (ص ١٦٠ – ١٦١).

يستهل المؤلف الفصل الخامس (التصورات الاجتماعية – السياسية للحركة الإسلامية)، بالحديث عن صورة العدو لدى الإسلاميين التي تلعب دوراً مركزياً في الشحن الإيديولوجي والتعبئة والمواقف السياسية. هناك ثنائية في اللغة المستعملة من قبل الأصولية: حزب الله وحزب الشيطان؛ الإسلام الصحيح والكفر والجاهلية؛ المستضعفون والمستكبرون، الظالمون (الامبريالية والاستعمار) والمظلومون الخ... الأعداء الرئيسيون لحزب الله قبل اتفاق الطائف هم: الولايات المتحدة واسرائيل وفرنسا والميليشيات المسيحية، والشيطان الأكبر هم: الولايات المتحدة واسرائيل والاتحاد السوفياتي. وموقع لبنان في هذا كله، هو انه من مناطق الصراع بين الإيمان والهرطقة، وبين الإسلام والجاهلية. توصف الدولة اللبنانية بأنها صنيعة الإمبريالية الغربية، وأن فرنسا أقامت نظاماً سياسياً طائفياً حمى امتيازات الموارنة. بعد الطائف، جرى التخلي عن صورة العدو التقليدية (الكتائب وفرنسا خصوصاً) وحوّل الى خصم سياسي.

وفي هذا الفصل، يعرض الباحث انتقاد حزب الله العلماء المحافظين لتحويلهم الإسلام الى مجرد شعائر. تأخذ مسألتا النزاع بين حزب الله مع البنى المحافظة داخل الطائفة الشيعية وفهم الإسلام بصورة تقليدية، أهمية قصوى في هذا الشأن. في منتصف عام ١٩٨٣، تساءلت «الحركة الإسلامية في لبنان» بالقول: «متى يتخلى المسلمون أخيراً عن علمائهم السيئين؟ ومتى سيحاذر المسلمون خطباء الحكام؟ ومتى سيلعنون فقهاء السرايات والقصور؟» (ص ١٧٩). من هنا، تدعو الحركة الإسلامية الى تنقية التعاليم الإسلامية مما علق بها من عناصر غريبة عن تعاليم الرسول. فترفض التطبير ولعن الخلفاء في احتفالات عاشوراء وما تسببه من سخرية واشمئزاز، وتقدم نفسها على انها البديل عن الفهم التقليدي للإسلام (ص ١٨١ – ١٨٣).

ان فهماً جديداً للإسلام يستلزم، طبقاً للحركة الإسلامية، توحيد كل القوى الإسلامية واستخلاص كل الحلول للمسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية وبالتالي تقديم فهم جديد للتاريخ والمستقبل. ان توحيد الفرد والمجتمع والقوى الإسلامية وصولاً الى ادعاء العالمية، ضروري لتجييش الجماهير ضد اسرائيل والإمبريالية وتحالفهما مع العلمانية (ص ١٨٥). يشير روزيني الى ان الإمام الراحل شمس الدين كان أبرز الذين تناولوا مسألة تكامل الفرد مع المؤسسة الاجتماعية، واعتبر ان التربية وسيلة لتوحيد الشخصية الإنسانية، كي لا يتحول المرء الى رقم في المجتمع. كما يقتبس عن السيد محمد حسين فضل الله دعوته الى توحيد السنّة والشيعة، وضربه مثالاً حول ذلك بسماح الإمام الخميني للإيرانيين في مكة بالصلاة خلف إمام سني ونهيه عن توجيه النقد الى الخلفاء الراشدين.

يبحث المؤلف بعد ذلك مسألة النظام الاجتماعي الإسلامي الذي سعت الإسلامية الشيعية الى تطبيقه في لبنان. منذ عام ١٩٨٣، بدأ الحديث عن الإسلام كدين ودولة وصولاً الى اقامة دولة اسلامية من قبل علماء الدين وقيادة الإمام الخميني كولي الفقيه. ان ما مكّن الإسلاميين الشيعة من طرح مشروعهم واعتباره حلاً نهائياً للمشكلات التي فشل النظام الطائفي – السياسي اللبناني في ازالتها، هو الدمار الذي لحق بالبنى التنظيمية للأحزاب اليسارية بعد الاجتياح عام ١٩٨٢ وتخلخل نظام أمين الجميل وبالتالي توطيد الإسلاميين لقواعدهم الاجتماعية وتحريك مقاومة الشيعة وسخطهم على الأوضاع.

من هنا، جاء «مشروع دستور الدول الإسلامية» (آذار ١٩٨٦) لـ٦٣ شخصية شيعية وسنية دينية لبنانية اجتمعت في ايران. يحصر الدستور السلطات في أيدي المسلمين بصفتهم أكثرية (ديموقراطية الأكثرية). واستغلته القيادات المارونية لاخافة أبناء طائفتها وجعلهم يلتفون بالتالي حول مشروع الكانتون المسيحي. حركة أمل اعتبرت الدستور «خيانة للأمة العربية والإسلامية» (ص ٢١٦ – ٢١٩). فيما رآه الكثر من المراقبين مشروعاً خيالياً بعيد المنال، بسبب الخلافات بين الشيعة والسنّة، وبين الشيعة أنفسهم، على شكل الشريعة التي يجب ان تطبق، وفوق كل شيء، حول الوسائل التي يجب ان تتبع للوصول الى الدولة الإسلامية، الثورة أم الحوار؟

السؤال المركزي الذي يطرحه الباحث في الفصل السادس (التحول النفسي الاجتماعي الى الحداثة في الفكر الإسلامي المعاصر)، هو: لماذا كان في إمكان حركة دينية – سياسية شيعية ان تخطو في عملية التحول من مجتمع تقليدي الى مجتمع حديث؟ يجيب المؤلف عن ذلك برصد العوامل التي وضعت الشيعة على طريق الحداثة، وهي: الحركة الإصلاحية للإمام الصدر التي اتجهت ضد البنية الاجتماعية التقليدية وضد الزعامات الشيعية؛ ممارسة الشباب دوراً رائداً في المقاومة؛ احتلال رجال الدين الشبان مناصبهم بعيداً من الوراثة؛ تغير دور المرأة الاجتماعي واقبالها على التعليم ونزولها الى سوق العمل وتحسن حقوقها نسبياً تجاه الرجل؛ دعوة الفقهاء الشيعة الى اعطاء المرأة الحرية في اختيار شريكها وتقرير مصيرها؛ مشاركة المرأة في الاحتفالات الحزبية والانتخابات والمقاومة العسكرية؛ تسهيل الزواج وتحريره من التقاليد الاجتماعية، موافقة شمس الدين وفضل الله على التنظيم الأسري بوسائل منع الحمل؛ فض المنازعات من طريق التحكيم والاجتهاد في الأحكام. في المقابل، يشير الى استمرار النظرة التقليدية الى المرأة من خلال الإصرار على منعها من تولي مراكز قيادية (باستثناء شمس الدين وفضل الله) والدعوة الى عدم اختلاطها بالرجل، فضلاً عن تعدد الزوجات وامكانات الزواج والطلاق المتعددة، التي تقف جميعها عائقاً أمام ولوج الحداثة (ص ٣٢١).

ينتقل روزيني بعد ذلك للحديث عن الإسلام كإيديولوجية تغييرية، وكيف ان الإمام الصدر استخدمها لإجبار النظام اللبناني على تحسين أوضاع الشيعة. ويقرر ان هذه الحركة لم تتحول الى تغييرية الا منذ الثمانينات مع نهوض الإسلامية الشيعية. ويختم كتابه بالقول ان الحركة الإسلامية والحركة الشيعية ظهرتا من خلال الأزمة الاجتماعية التي مر بها لبنان، وأنهما أثبتتا نفسيهما ايديولوجياً عبر استقطاب الأتباع وتحقيق طموحاتهما مستغلتين التناقضات في لبنان ومحيطه. فطورتا دينامية لافتة للنظر، وأقامتا قنوات اتصال بين التقليد والحداثة.

يبقى هناك تساؤل قابل للنقاش وهو: هل التغيرات التي طرأت على فكر الحركة الإسلامية في نظر المؤلف، والتي لامست الشكل ولم تمس بالجوهر، كافية لولوج الإسلامية الشيعية طريق الحداثة؟ كما لا يبين الباحث بعمق مدى استجابة القاعدة الجماهيرية الإسلامية الشيعية لمفاهيم الفكر الإسلامي. الى ذلك، لا يغوص في كيفية علاقة حزب الله بقواعده الجماهيرية، ولا دينامية عمل شبكة مؤسساته الاجتماعية والخدماتية أو الحوزات الدينية ودورها في الاستقطاب والاستنهاض. أخيراً، يشير عرضاً الى التكافل الاجتماعي داخل الطائفة الشيعية ونفوذ المرجعيات الدينية ودورها في جمع الخُمس والزكاة. من هنا، جاءت دراسة سطحية لهذين الجانبين المهمين.

* أستاذ في الجامعة اللبنانية.

العمران الإسلامي وعاء تتدافع فيه حقوق الأفراد والمصالح

الكتاب: فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري.
الكاتب: مصطفى بن حموش.
الناشر: دار البحوث للدراسات الإسلامية واحياء التراث – دبي، سلسلة الدراسات الفقهية.

■ يعرض الكتاب أهم خصائص العمران الإسلامي، وهو ارتباط شكل المدينة بضوابط الشريعة، وأحكام الفقه الإسلامي. ولكون العمران وعاء تتشابك فيه حقوق الأفراد وتتدافع فيه المصالح وتمارس فيه السلطات بمختلف مستوياتها، فقد أسند الى القضاء. لذلك كان للمؤسسات القضائية دورها في المجتمع الحضري، والذي يتمثل في حفظ الحقوق وتأطير تصرفات السلطات العامة وصيانة الشريعة. وبالجملة فإن العمران الإسلامي هو الصورة المادية لتحقيق حفظ الدين وسياسة الدنيا به. ويتضمن الكتاب سرداً لأهم المصطلحات الفقهية المتعلقة بالعمران مستخرجة من مجموعة وثائق المحاكم الشرعية في المغرب الأوسط (الجزائر) يعود تاريخها الى العهد العثماني. وتم انتقاؤها من مركز الأرشيف الوطني في الجزائر.

واستغرق المؤلف ما يقرب من السنة في تفحص حوالى عشرين ألف وثيقة خطية أو عن طريق الميكروفيش والميكروفيلم. وانتقى منها ما كان يتعلق بجوانب فنون العمران من ادارة وتخطيط وتصميم وبناء وغيرها.

ويعتبر الكتاب من الناحية الأكاديمية نافذة على عدد مهم من الوثائق التي تساعد على اعادة تركيب صورة احد البلدان الإسلامية التي عانت الطمس الثقافي وتخريب الهوية خلال عهد استعماري طويل. وكانت هذه الوثائق محل مفاوضات متعددة بين فرنسا والجزائر لاستعادتها الى بلدها الأصلي من بين الوثائق الأخرى التي لا تزال تحتفظ بها السلطات الفرنسية في مراكزها العلمية والعسكرية والمتاحف.

ويتكون الكتاب من ثلاثة أجزاء، إضافة الى ملاحق للتعريف بمختلف أسماء الأعلام المذكورة من شخصيات ومدن وبلدان وكذلك المصطلحات المعمارية والحرفية. فالجزء الأول يتعلق بالمقدمة والتعريف بالأرشيف العثماني الجزائري وبمختلف الهيئات الإدارية والقضائية في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني.

والجزء الثاني دراسة فقهية لمختلف المواضيع والمصطلحات المعمارية والعمرانية التي ترد في كتب الفقه في المذهبين الحنفي والمالكي باعتبارهما المذهبين السائدين في منطقة المغرب خلال العهد العثماني. أما الجزء الأخير والأكبر حجماً فهو عرض للوثائق الشرعية والأوامر السلطانية التي انتقاها المؤلف من الأرشيف العثماني بترتيبها الرقمي ويبلغ عدده الإجمالي ٤٢ وثيقة.

«وردة للمختلف» أو البحث بين تراثنا النهضوي وفكرنا المعاصر

نبيل سليمان *

■ بعد ثلاث روايات وست مجموعات قصصية وسبعة كتب في النقد الأدبي وثلاثة كتب فكرية، قدمها محمد كامل الخطيب خلال ربع قرن ١٩٧٤–١٩٩٩ يأتي كتابه «وردة للمختلف».

وتبدو بجلاء افادة الخطيب في كتابه «وردة للمختلف» من بحثه في التراث النهضوي العربي، وتحديداً «مؤتمر المثقفين السوريين واللبنانيين» الذين عقد في بيت يوسف الهراوي في معلقة زحلة ربيع عام ١٩٣٤، وفي التحول الذي تبع هذا المؤتمر، والانقسام الكبير بين التيار القومي والتيار الشيوعي.

ويذكر انه سبق مؤتمر زحلة مؤتمر «عصبة العمل القومي» في قرنايل عام ١٩٣٣، بعده اقامت العصبة والحزب الشيوعي السوري اللبناني مؤتمر زحلة، وقام سليم خياطة (١٩٠٩–١٩٦٥) بكتابة وثائقه، وشارك فيه ميشيل عفلق وصلاح البيطار وجميل صليبا وكامل عياد ومنير سليمان وسواهم من سورية، ومن لبنان: سليم خياطة والياس القرعوني ومصطفى العريس ويوسف خطار الحلو وسواهم. وأطلق هذا المؤتمر نداءات وشعارات الاتحاد العربي واتحاد الجمهوريات العربية والولايات العربية المتحدة، وكان أهم قراراته الدعوة الى فصل الدين عن الدولة.

يثبت الخطيب نص الكراس الذي أصدره مؤتمر زحلة تحت عنوان «في سبيل الوحدة العربية» ثم يثبت نص الكراس الذي صدر في بغداد عام ١٩٣٦ تحت عنوان «في سبيل تحرر الشرق العربي». ومن المقارنة بين الوثيقتين يجلو الخطيب التغير الذي طرأ في موقف الشيوعيين من مسألتي الأمة والوحدة، ابتداءً من تبديل عنوان وثيقة مؤتمر زحلة، الى ان يأتي جيل كتابة اخرى، ماركسية من الشعب العربي، ابن الشرق العربي بدلاً من العربي، قضية الشرق العربي بدلاً من القضية العربية. بل ان الوثيقة البغدادية قالت بأمم الشرق العربي، ثم دعت في خاتمتها الى تصحيح كلمة أمم بكلمة شعوب، كما حذفت انتقاد وثيقة مؤتمر زحلة لمن يسعون الى قومية عراقية مستقلة، وأضافت بنداً يدعو الى تحرير المرأة.

تحت وطأة الانسجام مع خط الكومنترن، تحولت وثيقة «مؤتمر زحلة»، تعبيراً عما يدعوه الخطيب بالخطأ التاريخي وبالانقلاب الذي سيتواصل ويتعمق في تقديم خالد بكداش لكتاب «طرائق الاستقلال ١٩٣٩»، مما سيعمق الصراع بين التيارين القومي والشيوعي.

كما سيتوالى الصراع والانقسام والانقلاب داخل كل تيار تأسيساً على مسألتي القومية والاشتراكية. وما يخص التيار الشيوعي، يعاين الخطيب تحت عنوان «التغيير ولهذه الأسباب» ما قبل وما بعد المفصل التاريخي الذي يمثله «مؤتمر زحلة»، كما يوضح الفهم الماركسي لمسألتي الأممية والتبعية، في كتابات الرعيل المؤسس: يوسف ابراهيم يزبك (١٩٠١–١٩٨٢) صاحب كتاب «النفط مستبد الشعوب ١٩٣٤»، ورئيف خوري (١٩١٢–١٩٦٧) الذي ساجل قسطنطين زريق في كتابه «معالم الوعي القومي ١٩٤١»، والعراقي عبدالفتاح ابراهيم صاحب كتاب «على طريق الهند ١٩٣٥»، والفلسطيني بندلي صليبا الجوزي (١٩٧١–١٩٤٢) صاحب كتاب «من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام» وسواهم.

بالانقلاب الذي عبر عنه تحول وثيقة «مؤتمر زحلة» الى «وثيقة بغداد»، تراجع هذا الجيل الماركس المبدع، وسيطرت الستالينية، وبدأ التفكير التابع يفرغ الفكر الشيوعي العربي من اي كتاب أو مفكر له أهمية أو اعتبار، الى ان يأتي جيل كتابة اخرى، ماركسية لا شيوعية، لأنها من خارج الأحزاب، سوى نموذج مهدي عامل، وكما تمثل مؤلفات الياس مرقص وياسين الحافظ. وكان الأولى بالخطيب هنا ألا يغفل بوعلي ياسين، كما كان الأولى به أيضاً ألا يغفل التزامن بين تعريق – من عراق – وثيقة مؤتمر زحلة وهتاف خالد بكداش بالأمة السورية، وبين أطروحات أنطون سعادة وحزبه.

يقدم الخطيب لهذا الشطر من كتابه افتقاد التقليد الديموقراطي الذي كان في صحافة عصر النهضة: المناظرة والحوار وتداخل الجمهور، وبالتالي شيوع التخوين على لسان التيار القومي، والتكفير على لسان التيار الاسلامي، والتحريف على لسان التيار الشيوعي. ويجسد الخطيب دعوته الى اعادة الاعتبار للمناظرة والحوار في مجادلته لمحمد جابر الانصاري ولعلي حرب.

ومع الأول تحت عنوان (التعادلية، الوسطية، التوفيقية) يبدأ بتتبع نشوء اللحظة التوفيقية في الفكر البشري، وصولاً الى تعبيراتها لدى توفيق الحكيم وزكي نجيب محمود وعبد الحميد حسن. ويرى ان الأنصاري في كتابه (الفكر العربي وصراع الأضداد ١٩٩٦) كشف بدقة عن الجذر التوفيقي للناصرية وللبعث ولأنطون سعادة ويتخوف الخطيب من ان تؤدي التوفيقية التي يقترحها الأنصاري، كأي توفيقية، الى جمع أسوأ ما في طرفين، ويرى ان التوفيقية تطور معاق، وقد تكون خضوعاً للمتطلبات السياسية، أكثر منها اتجاهاً فكرياً.

أما مع علي حرب، وتحت عنوان (دلالة المحذوف)، وبعد توكيده على أن التنوير مشروع لتحرير الانسان، وبعد تعبيره عن اعجابه بلغة وأسلوب وعمق ثقافة علي حرب، وروحه النقدية وبعض لمحاته وشطحاته، بعد ذلك يستغرب الخطيب حماسة حرب عندما يتحدث عن التنوير والنهضة والتقدم، فيهاجمها وحامليها، ويأخذ عليه ان حديثه عن التنوير والحداثة العربيين فهو يعالج موضوعاً اجتماعياً محدداً، بأسلوب ولغة ومصطلحات فلسفية مجردة وغير محدودة، مما يكاد يجعل جهازه المفاهيمي والاصطلاحي بعيداً عن موضوع بحثه.

ويبلغ هذا الشطر من كتاب «وردة للمختلف» في ما يتلو من أمر الليبرالية، اذ يرى الكاتب أن الفكر التقدمي العربي المعاصر مثل جيش مهزوم ومكشوف، انتقل الى خط الدفاع الثاني، مع انه لم يبنه، وهو خط العقلانية والديموقراطية. ويرسم الخطيب المستحيلات الآن بتكون الليبرالية – أولاً – لأنها لم تنجز الاصلاح الديني ولعجزها الذاتي للشرط الموضوعي، وثانياً: استحالة حكم السلفية، وثالثاً، استحالة استمرار الأنظمة العسكرية والواحدية، ورابعاً: استحالة تحقيق الاشتراكية. والكاتب في ذلك، وفي ما كتب أيضاً عن مشروع النهضة العربية وعن المسرح العربي، يبدو، بالبحث كما بالغنائية والمجادلة، يرسم «وردة المختلف» التي يقدمها في خاتمة الكتاب الى كل حرف عربي تنويري. وهنا، تنبغي العودة الى مقدمة الكتاب التي رأى فيها الثقافة كالسياسة، فعل مشاركة اجتماعية أخلاقية تنويرية. أما السياسة في المعنى الحزبي الضيق، فالخطيب يؤكد أنه نظر اليها دوماً بعين الريبة، كما نظر الى السياسي المحترف والثقافي التقني. أما العمل السياسي السري، فالخطيب يؤكد انه لم يؤمن به، لفقدانه حسن المؤامرة والبطولة، وربما، كما ابتدأ بالقول، لأنه اتخذ دون كيشوت دليله منذ الصغر، فهل يكون – وأمثاله – يحاربون الطواحين، كأسلافهم طوال القرن العشرين؟ وعلى أي حال، ماذا تراهم يفعلون للقرن الحادي والعشرين؟

* كاتب سوري.

المدينة	الفجر	الشروق	الظهر	العصر	المغرب	العشاء
مكة المكرمة	٥:٠٧	٦:٢٥	١٢:٢٨	١٥:٥٣	١٨:٣٣	٢٠:٠٣
المدينة المنورة	٥:٠٦	٦:٢٦	١٢:٢٩	١٥:٥٥	١٨:٣٤	٢٠:٠٤
القدس المحتلة	٤:٢٠	٥:٤١	١١:٤٨	١٥:١٦	١٧:٥٢	١٩:٠٧
ابو ظبي	٥:٠٩	٦:٢٤	١٢:٣١	١٥:٥٦	١٨:٣٤	١٩:٤٥
المنامة	٤:٢٤	٥:٤٠	١١:٤٦	١٥:١٣	١٧:٥١	١٩:٠٣
الجزائر	٥:٢٤	٦:٤٩	١٢:٥٦	١٦:٢٢	١٩:٠٠	٢٠:٢٢
الخرطوم	٤:٤١	٥:٥١	١١:٥٨	١٥:٢٠	١٨:٠٣	١٩:٠٨
الكويت	٤:٣٢	٥:٥١	١١:٥٨	١٥:٢٦	١٨:٠٣	١٩:١٧
الرباط	٥:٠٥	٦:٢٩	١٢:٣٧	١٦:٠٣	١٨:٤٠	١٩:٥٧
الرياض	٤:٣٧	٥:٥٧	١٢:٠١	١٥:٢٧	١٨:٠٥	١٩:٣٥
الدوحة	٤:١٩	٥:٣٥	١١:٤٣	١٥:٠٩	١٧:٤٧	١٨:٥٧
القاهرة	٤:٣٠	٥:٥٧	١٢:٠٣	١٥:٣١	١٨:٠٧	١٩:٢٦
بيروت	٤:١٧	٥:٤٠	١١:٤٨	١٥:١٣	١٧:٥١	١٩:٠٨
بغداد	٤:٤٢	٦:٠٣	١٢:١١	١٥:٣٩	١٨:١٥	١٩:٣٣
تونس	٤:٥٦	٦:٢٠	١٢:٢٨	١٥:٥٤	١٨:٣٢	١٩:٥٢
جيبوتي	٥:٠٠	٦:٠٩	١٢:١٦	١٥:٣٥	١٨:٢١	١٩:٢٦
دمشق	٤:١٥	٥:٣٦	١١:٤٣	١٥:١١	١٧:٤٨	١٩:٠٤
دبي	٥:٠٤	٦:٢٠	١٢:٢٨	١٥:٥٤	١٨:٣٢	١٩:٤٢
صنعاء	٤:٥٤	٦:٠٤	١٢:١٣	١٥:٣٣	١٨:١٥	١٩:٢٢
طرابلس الغرب	٤:٤٧	٦:٠٩	١٢:١٦	١٥:٤٣	١٨:١٩	١٩:٣٧
عمان	٤:١٧	٥:٣٨	١١:٤٦	١٥:١٣	١٧:٤٩	١٩:٠٤
مسقط	٤:٥٣	٦:٠٨	١٢:١٥	١٥:٤١	١٨:١٨	١٩:٢٩
مقديشو	٤:٥١	٦:٠٠	١٢:٠٧	١٥:١١	١٨:١١	١٩:١